بداية .. ومنذ الساعة الاولى ، تحولت الحرب من حـرب بين الجيشين السوري والمصري وبين جيش الصهاينة ، الى **حرب قومية شاملة** .. من باب المندب في الجنوب الى اللاذقية في الشمال ، ومن بغداد في الشرق الى الرباط في الغرب ، كل القوى دخلت المعركة، الجماهير والمؤسسات، الجيوش والاقتصاد ، المتخاصمون والمتحدون، الرجال والنساء . لم يبق في الامة من لم يساهم في الحرب بغض النظر عن الدوافع او المفاهيم أو حتى التوقعات . وكانت الايام العشرين درسا لمن يفكر في سبـل تحقيق الوحـدة العربية ، ليس بغير القتال ، ضد الاستعمار وبالذات ضد اغتصاب فلسطين .

ثم هي لم تعد الحرب النظامية الصرفة .. فلانها قومية اكتسبت من فورها طابعـا شعبيا عبر عن نفسه بمختلف الاشكال ، من طوابير المتطوعين للخدمة المدنية ، الـى الانضباط الفاهـم لقيود الحـرب ، الى الاستنفـار اليقظ لمحـاولات العدو النفسية والعسكرية ، وبلغت أرقى أشكالها بلا جدال في موقف جماهير الارض المحتلة الذي حرم العدو فجأة، وفي احرج لحظات نشاطه، من خمسين الفا من العمال رفضوا التعاون معه منذ بدء القتال ، وعاشت الارض المحتلة ما يشبه العصيان المـدني العفوي مما القى الرعب في نفوس المحتلين . بالاضافة الى الدور الذي قامت به قوات الثورة الفلسطينية (الارادة المنظمة المسلحة للجماهير العربية) والتي اثبت مقاتلوها انهم ، وبعد سنوات ثلاث من محاولات التصفية الجسدية والسياسية والترويض الاجتماعي، ما يزالون اهلا بثقة الامة ، وقادرين على الاندفاع بشجاعة وتفان نحو الارض التي حرموا طويلا مـن التوجه نحوها .

وعندما توقفت الحرب كان طبيعيا ان تشعر الجماهير بالدهشة والغضب والمرارة والتوجس وكانت هذه المشاعر ايضا تمثل اعلى درجات وحدتها القومية واستنفارهـا العفوي .

الحصاد المباشر للحرب الرابعة كثير ، وستظل بذورها التي ارتوت بدماء الشهداء تعطي المزيد على الساحة الجماهيرية . تقف الجماهير العربية كلها الان في أرقى حالات الاستعداد والتهيؤ للنشاطات الثورية المختلفة سواء كانت موجهة مباشرة ضد العـدو الصهيوني (الحرب) . أو لتغيير واقعها الاجتماعي (مقاومة كل ثغـرة اجتماعية أو سياسية تنفذ منها سياسة الاستسلام) . **الجماهـير تتوقع من ادواتهـا السياسية (التنظيمات والاحزاب والحركات والحكومات) ان تعبر عن ارادتها ، فان لم تفعل فان الجماهير لا بد ستبحث وتبني لنفسها ادوات تعبـير نضالية اخرى غـير التي تعجز وتسقط .**

وفي الوقت نفسه تزايد بشكل كبير دور المؤسسات الحكومية وتأثيرها على مسـار الحركة القومية ذلك ان الحرب بدأت كما ذكرنا ، والساحة خالية تقريبا من المنظمـات الجماهيرية الفعالة . لذا تكاد تنفرد المؤسسات الحكومية الان بالنشاط وبالحديث باسم الامة كلها . وذلك برغم ان « رصيد » قوى الثورة الفلسطينية جماهيريا قد زاد بشكل كبير نتيجة ترجيح « الحرب » لوجهة نظرها الخاصة بأن القتال وحده هو الذي يحـرر الارض . وهي وجهة النظر التي دافعت عنها بصمود رائع طوال السنوات الماضية كلها . الا ان عدم تبلور الاشكال التنظيمية للنضال الجماهيري القومي حول النضـال الفلسطيني في السنوات الماضية ، أدى الى غياب التنظيمات العربية الفعالة التي يمكنها التعبير عن أتساع رقعة النضال القومي المباشر ، والتي تحصد ثمار الحـرب القومية التي دارت(١٥) كما ان الثمار المباشرة السياسية للحرب الرابعة ، حتى الان هي مزيد من الحصار الرسمي حول الارادة الحرة للنضال الثوري الفلسطيني ، ومحاولة الضغط عليها واستدراجها الى مقتلها بقبول الحلول الوسط .